الخليج

الرأي, مقالات

1 ديسمبر 2016 03:42 صباحا

هل حقاً أننا خارج المعاصرة؟

الكاتب

علي محمد فخرو
د. علي محمد فخرو

دعنا ننزل إلى ساحات واقع الحياة العربية لنرى إن كانت الملاحظات والوقائع تستدعي وجود ذلك الصُراع المفتعل بين الأصالة والمعاصرة.

دعنا نبسط الأمر وننظر إلى السطح أولاً، ونبدأ بقائمة الكلمات المهيمنة على تعاملنا مع أهم النشاطات التي تحكم حياة المجتمعات العربية، وبالتالي الإنسان العربي، من مثل النشاطات السياسية، والعلاقات الاجتماعية، والأفكار المتداولة، والنشاطات الاقتصادية والعلمية والتكنولوجية والإعلامية والفنية، والخدمات الصحية والتعليمية.

فالكلمات المتداولة في السياسة تشمل الديمقراطية والأحزاب والانتخابات والبرلمان والدستور والقوانين والسلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية والبيروقراطية. فهل هذه كلمات المعاصرة أم كلمات الأصالة؟

أليست كلمات الأصالة من مثل الخلافة وأمير المؤمنين وذوي الحل والعقد وطاعة ولي الأمر والشورى وأهل البيت وعقد البيعة وتطبيق شرع الله، واعتبار كل معارضة سياسية فتنة دينية، أليست غير متداولة ومنسية، وبالتالي فأغلبها يصنف ككلمات قاموسية غير مستعملة ولا متداولة؟

وفي عالم الفكر والمبادئ والقيم أليست الكلمات المتداولة على كل لسان هي من مثل الحرية والمساواة والتسامح والأخوة الإنسانية والليبرالية والحداثة والتقدم وحقوق الإنسان وحرية التعبير والعدالة الاجتماعية وغيرها.. أليست هذه كلمات المعاصرة وأهدافها ووسائلها؟

وفي عالم الاقتصاد أليست الكلمات المهيمنة هي الرأسمالية والاشتراكية والنيوليبرالية العولمية وقانون حرية الأسواق والميزانية والضرائب والدخل القومي العام والإحصاءات ودخل الفرد السنوي والبنوك والفوائد والقروض والودائع وغيرها؟ أليست جميع هذه الكلمات معاصرة؟ هل يذكر أحد كلمات من مثل بيت المال والخراج والجزية وغيرها من الكلمات المندرجة في الأصالة والتي كانت تصف وتتعامل مع حياة اقتصادية بدائية شديدة البساطة؟

وبالطبع لا نحتاج لسرد آلاف الكلمات العلمية والتكنولوجية والطبية والإعلامية والتواصلية الإلكترونية والموسيقية والفنية التي جميعها تنتمي إلى عالمنا المعاصر، وليس لها وجود في تراثنا ولا صلة لها بمفهوم الأصالة.
ما نحتاج أن نعي دلالاته بعمق هو أن قسماً كبيراً من تلك الكلمات المعاصرة تنتمي في أصولها اللغوية ومفاهيمها إلى الحضارتين اليونانية والرومانية. وهذا يجعلنا في الحاضر مرتبطين فكرياً وتنظيمياً ولغة بهاتين الحضارتين، تماماً كما هو الحال بالنسبة لأمم ومجتمعات الغرب. ومثلما تمددت في الماضي البعيد جذورنا إلى حضارات الهند وفارس واليونان فإنها تعود اليوم فتتمدد، من خلال الحضارة المعاصرة الغربية، إلى حضارتي اليونان وروما بقوة أكثر وتشابك أشد.
ثمُ لنذكّر أنفسنا بتأثير الكلمات على تكوين اللغة والخطاب، تكوين الأفكار والعقليات، سعة أو ضيق الخيال، التواصل والتفاعل الفكري بين البشر، حتى ندرك بأننا في قلب العصر، وأننا، شئنا أم أبينا، نواجه يومياً إملاءاته ونتعايش مع متطلباته. فالكلمات تكوّن اللغة، واللُغة هي وعاء الفكر، والفكر يكوّن العقل.
إذا كان الأمر كذلك بالنسبة لجانب واحد فقط من التشابك والتفاعل بين الأصالة والمعاصرة في عالم الكلمات والتعابير، فإذاً أين المشكلة بالنسبة لما يسمّى بالصراع بين الأصالة والمعاصرة؟ هل حقاً أنه صراع وتناقض أم أنه معركة وهمية آن لها أن تهدأ وتترك المجال لتفاعل إبداعي خلاق يغني حياتنا ويغني الآخر؟
دعنا من الخلافات النظرية البحتة بين رافعي راية الأصالة وبين رافعي راية المعاصرة، والذين لا يرون في الأمر إلا مقارنات بين النصوص التراثية والنصوص الحداثية. فلبّ الموضوع أكثر من ذلك بكثير، وهو لا يكمن في المقارنات والمناظرات النظرية، ولكن يكمن في فهم الواقع وفي معالجة مشاكل الواقع وتخطي تخلّفه وعجزه وبلاداته التي وصلت إلى قمتها في المشهد الجهادي التكفيري العنفي العبثي الذي يلفح وجوهنا ليل نهار وفي طول بلاد العرب وعرضها.

إن القضية الثانية الكبرى هي في مواجهة تحديات العصر فهماً ونضالياً وربطه ربطاً محكماً بفهم الواقع العربي وتجاوز تخلّفه. من أجل تغيير الواقع والاستجابة لتحديات العصر نحتاج إلى مواجهة وحل إشكاليات عدة: لدينا إشكالية مع رجوع الاستعمار ونجاحاته وتخطيطه لمستقبلنا. لدينا إشكالية الاقتصاد الريعي الخاضع لمنطق الرأسمالية النيوليبرالية العولمية على حساب الفقراء والمهمشين والطبقة الوسطى. لدينا إشكالية الوجود الاستيطاني الصهيوني وضرورة دحره. لدينا إشكالية الاستبداد والتسلّط الأمني على حساب الانتقال السلمي لنظام ديمقراطي معقول، لدينا إشكالية التراجع المأساوي في وجود وفاعلية النظام القومي الإقليمي العروبي لحساب صعود قوى إقليمية أخرى وهيمنتها على مقدرات وأرض بلاد العرب. لدينا العجز والشلل والتمزق في نضال القوى الشعبية المدنية السياسية العربية. لدينا التراجعات الهائلة في حقول خدمات الصحة والتعليم والفنون ، وذلك لحساب الخصخصة والهيمنات الطائفية والقبلية .وبسبب ضعف القوى التقدمية الناظرة إلى المستقبل

تلك عينات من مشكلاتنا تحتاج إلى جعل موضوع الأصالة والمعاصرة في خدمة إيجاد حلول لها لا تتجاهل التراث ولا تتعامى عن التحامنا المتنامي بالعصرنة، والذي أبرزنا مقداره وتشابكه في عالم الكلمات والتعابير التي نستعملها ليل نهار.

.آن لهذه الأمة أن تخرج من المعارك الوهمية وتدير وجهها نحو حل مشاكل حياتها، وما أكثرها

"حقوق النشر محفوظة "لصحيفة الخليج .2024 ©